حفظ السرِّ ومعناه
تقنيَّاته وتأويله في البحث الروحيّ الإسلاميّ

أورخان مير كازيموف
باحث وأستاذ محاضر في المدرسة التطبيقية للعلوم العليا. باريس. فرنسا

ملخص إجمالي:

إذا كان مفهوم السرّ الميتافيزيقي يهتمُّ بموضوع السرّ، فإنَّ أجزاء السرِّ "المُسارّي" و"السياسي" تلقي نظرة خاطفة على أسباب وتقنيَّات حفظه عند المسلمين. وهذا التحليل تعقبه توليفة للنظريَّة والتطبيقات المتعلّقة به في النصوص الحروفيَّة، وهي التوليفة التي سبق وشهدنا عليها مثالاً تاريخياً في إحدى الحركات التي تأسَّست في إيران في خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

ما هو السرُّ؟ ولماذا وكيف يُحفظ؟ وإلى أي مدى يمكن تظهير مفهومَيْ السر والحفظ في حقول البحث الروحي الإسلامي؟ حول هذه الأسئلة الثلاثة وما يتفرع منها سوف يدور نقاشنا في هذه المقالة.

* * *

مفردات مفتاحيَّة: معنى السرّ- البحث الروحيّ – النصوص الحروفيَّة – السرُّ الذاتيُّ – السرُّ المسارّي.

العدد الخامس - 1445هـ - ربيع 2023م

تقديم:

ورد في القرآن الكريم ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾[2]. ففي الإسلام، كما في الديانات الأخرى، يكون السرُّ قبل أيِّ شيء مصحوبًا بالسرِّ غير المُتاح المتعلّق بالله. والقرآن، باعتباره كلامًا إلهيًّا بلسان بشريٍّ، اللسان العربيِّ، موحى إلى النبيِّ محمدﷺ، هو الاستحضار الدائم له. وهو بالنسبة إلى المؤمنين برسالة النبيِّﷺ، مشحون بقوَّة هائلة. كما أنَّه، بلا ريب، يتضمَّن معنى ظاهِرًا، ومعانيَ مَخفيّة، ولا يحتمل دائمًا قراءة حرفيَّة. وبينما يدعو إلى البحث عن الدلالات العميقة، يذهب رأسًا إلى التجربة الشخصيَّة للقارئ حيث إنَّه يشتمل على سبعة مستويات. وقد ورد في الحديث النبويِّ: إنَّ للقرآن ظهرًا وبطنًا، ولبطنه بطنًا إلى سبعة أبطن.

يتضمَّن القرآن نوعين من الخطاب، أحدهما واضح، والآخر رمزيٌّ وخفيٌّ، لا يملك مفاتيح تأويله إلَّا الله. قال تعالى﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾[3].

في اللَّاهوت الإسلاميِّ، يُشار إلى الجانب الخَفِيِّ الأخرويِّ، التجاوزيِّ، والذي لا تبلغه معرفة الإنسان، بألفاظ من قبيل (الذات) (الغيب) (الباطن): هو **السرُّ الذاتيُّ** وكنهه الذي لا يعرفه إلَّا هو، ولهذا كان مصونًا عن **الأغيار**، مكنونًا عن **العقول والأبصار**. **ولا يستطيع الإنسان أن يعرف عن هذا السرِّ إلَّا ما يكشفه سبحانه وتعالى له. وثمّة حديث قدسيٌّ يقيم مواءمة بين الوحي والخلق. فكلاهما ينجمان عن السبب الرئيسيِّ نفسه، الذي هو رغبة الله تعالى بالتعريف عن نفسه:** كنت **كنزًا مَخفيًّا** فأحببت أن أعرف **فخلقت الخلق** لكي أعرف. وبذلك تكون المعرفة البشريَّة محدودة بالضرورة.

لا ينفكُّ القرآن يُكرِّر أنَّ الله وحده يعلم كلَّ أسرار الخلق (أسرار السماوات والأرض). وحتى الأنبياء لا يملكون مجمل العلم الإلهيِّ. والله تعالى يخاطب محمدًا في القرآن فيقول ﴿**قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ**﴾[4].

---

[1]- **Orkhan Mir-Kasimov** أكاديمي ومفكر فرنسي مسلم، وهو سليل عائلة مسلمة في في آسيا الغربية - مؤرخ وباحث في المركز الوطني للبحث العلمي **CNRS** في فرنسا.

ـ العنوان الأصلي للمقالة: **Techniques de garde du secret en islam**

ـ المصدر: **Revue de l’histoire des religions, numero 2, 2011**

ـ نقله عن الفرنسية: عماد أيوب

[2]- سورة الأنعام، الآية 59.

[3]- سورة آل عمران، الآية 7.

[4]- سورة الأنعام، الآية 50.

بين المتعالي والمتجلِّي:

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ التمييز بين الجانب المتعالي للّه، أي ذاته، من جهة، وبين الله المُتجلّي من خلال أسمائه وصفاته من جهة أخرى، لهو أمر مشترك في اللَّاهوت الإسلاميِّ. منذ القرون الأولى التي تلت ظهور الإسلام، أصبحت العلاقة بين الذات والصفات، والكامنة في ظهور المتعالي والأبديِّ في العالم الذي يقبل الإبصار والفناء، أصبحت أحد المواضيع المركزيَّة في النقاشات اللَّاهوتيَّة. فبعد مناظرة قويَّة مع المحنة في القرن التاسع، عُدّ القرآن برأي الأغلبيَّة كلام الله الموحى، وهذه المسألة تلوّنت على نحوٍ ألسنيٍّ: كيف يمكن للفعل الإلهيِّ أن يُعبّر عن نفسه من خلال الكلام البشريِّ، على غرار ما يحدث في الرسائل النبويَّة وفي الكتب المقدَّسة؟ وكيف يمكن للأعيان والحقائق أن تُحمل من خلال لغة البشر، وهي التي تتَّصف بالطابع الأمبيريقيِّ التجريبيّ؟

من خلال التصوُّف الإسلاميِّ، حظِيَ السؤال عن الطبيعة المفارقة للخطاب الإلهيِّ والبشريِّ بدراسة متمعِّنة. كيف السبيل إلى قصِّ ما لا يقبل القصّ؟ إلى وصف ما هو غير قابل للإبصار \ غير منظور؟ والتعبير عمَّا لا يقبل التعبير؟ أيُّ شكل يجب أن يأخذه خطاب السرِّ؟. ولقد بحث المتصوّفة عن الإجابة من خلال إعادة إنتاج التجربة النبويَّة وإعادة الاتصال المباشر بمصدر الوحي، فنتج من ذلك "الشطح"، وهو جملة عبارات تقع موقع المفارقة، وتأتي في حالة الوجد و"النشوة الروحيَّة"عندما يقلب الحضور الإلهيُّ الأنا المتصوِّفة رأسًا على عقب، ويتولّى الفم التعبير عنه. وثمّة عدد كبير من هذه العبارات التي أطلقها خطباء مسلمون في القرون الأولى، وجمعها روزبهان باقلي الشيرازي، المتصوِّف الإيرانيُّ البارز الذي عاش في القرن الثاني عشر، في كتابه (شرح الشطحيَّات). كذلك نعثر فيه على توسيع مميّز لنظريَّة الالتباس الملازمة لكلِّ تجلٍّ للإلهيّ. ويمتاز هذا الالتباس بجانبين اثنين يُعبرَّ عنهما بلفظتين (تلبيس) و (التباس) المشتقّتين من الجذر العربيِّ نفسه مع الاتحاد في الدلالة: التخفّي travestissement

إضافة إلى اللغة المفارقة للشطح، اشتغل التصوُّف الإسلاميُّ في حقب متأخِّرة على أنماطٍ أخرى من الخطاب هي نتيجة المواجهة القائمة بين التجربة الروحيَّة المُعاشة ووسائل اللُّغة العاديَّة. وتُشكّل القصيدة الصوفيَّة الفارسيَّة أحد الأمثلة، وتكتسي أهميَّة خاصَّة. فلغتها التي عكستها مُؤلَّفات كبار المتصوِّفة من الغضنافي (المتوفىَّ سنة 1151)، إلى عبد الرحمن الجامي (المتوفىَّ سنة 1492)، بلغت ذروتها مع حافظ شيرازي(المتوفىَّ سنة 1389) والذي لُقّب بـ "لسان الغيب".

لقد استطاع الشعر الصوفيُّ الفارسيُّ أن يُقيم مطابقة بين مفردات اللُّغة اليوميَّة ومفردات اللُّغة الشعريَّة من جهة، وبين الخطاب الذي يتناول الحقائق الميتافيزيقيَّة من جهة أخرى. لذلك، ثمّة مستويات مختلفة لقراءة هذا النوع من الشعر. والقارئ الخامل يركن في فهمها إلى الكلمات، أمَّا

القارئ اليقِظ فيعثر فيها على مستويات مختلفة. من المحتمل أنَّ مُصنّف (السوانح) الذي ألّفه أحمد الغزالي (توفيّ سنة 1126)، والذي يُمثِّل أحد النصوص النظريَّة الهامَّة في الشعر والنظريَّة، من المحتمل أنَّه تطرَّق إلى وظيفة التحوُّل الدلاليِّ داخل الُّلغة. ويُبيّن لنا النصُّ التالي كيف صاغ الغزالي فكرة التعبير عن الحقائق التي اشتغل الصوفيُّ عليها في سيره نحو العشق الإلهيِّ من خلال كلمات الُّلغة العاديَّة.

إنَّ هذه الهوامش تنقسم إلى بضعة فصول مُرتبطة بالدلالات التي يولّدها العشق الصوفيّ. ومع ذلك، فإنّه لا يمكن للكلمات والعبارات العاديَّة أن تتضمَّن قصة العشق، لأنَّ الدلالات التي تحملها الُّلغة العاديَّة تشبه العذارى بحيث لا تقدر الكلمات على أن تطال طرف الحجاب. ورغم أنَّ مهمَّتنا تقوم على تزويج الدلالات العذارى من الكلمات الرجال في الحجرات المغلقة للكلام، فإنَّ عبارات قصَّة العشق إنَّما هي إشارات إلى الدلالات المختلفة المتوارية خلف اللاَّيقين. لكنَّ وجود هذا اللاَّيقين خاضع لأولئك الذين حُرموا من الذوق الروحيّ. وتنقسم قصة العشق إلى قصتين اثنتين: إحداهما عن الدلالات التي تُشير إليها العبارات، والأخرى عن العبارات التي تُترجم الإشارات. في صميم العبارات توجد السيوف ذات الحدَّين لكنّها غير منظورة إلاَّ بعين الرؤية الروحيَّة. وإذا كان في هذه الفصول ثمَّة أشياء غير قابلة للفهم، فإنّها تُمثّل جزءًا من هذه الدلالات الخفيَّة.

في مقابل تطوُّر الُّلغة الرمزيَّة للشعر الصوفيِّ، ارتسمت معالم التصوُّر الفلسفيِّ لـ عالم الصور، أو "عالم المثال" حسب تعبير هنري كوربان، أي العالم الخاصَّ بالخيال المُبدع (عالم الخيال). ومن بين المفكِّرين الذين ساهموا في بلورة هذا التصوُّر نذكر أسماء بارزة أمثال أبو نصر الفارابي (المتوفىّ سنة 950)، ابن سينا (المتوفىّ سنة 1037)، شهاب الدين يحيى السّهرورديّ (المتوفىّ سنة 1191)، ابن عربي (المتوفىّ سنة 1240). ومن المفيد القول أنَّ "عالم الصور" هو عالم وسيط حيث تلتقي الحقائق غير المنظورة للعالم المتسامي بالصور الخاصَّة بالعالم المحسوس. ويمكن بلوغ هذا العالم عن طريق الخيال الفاعل، الذي هو مَلَكة خاصة تمُثّل بالنسبة إلى صور "عالم المثال" ما تمُثّله العينان بالنسبة إلى أشياء العالم الفيزيائيّ. هذه الفكرة تقترب كثيراً من تلك التي عبرّ عنها أحمد الغزالي في المقطع الذي كنَّا قد ذكرناه. ولكي نستعيد مفاهيمه يمكننا القول أنَّ "زواج" الدلالات الروحيَّة غير المنظورة بالكلمات والعبارات التي تُحيل إلى عالم التجربة المحسوسة، إنَّما يتمُّ في (عالم الصور). ومع ذلك، فبالنسبة إلى الفلاسفة والمتصوّفة، ليست الدلالة الروحيَّة التي تُزيّن صور العالم الفيزيائيِّ في عالم المثال اعتباطيَّة أو مُتحرِّرة - إنّها، على العكس، تُشكّل المعنى الأصحّ والأصليّ والجوهريّ لهذه الصور، والذي يبقى خفيًا في العالم المحسوس وراء الاحتمالات والمشارطات. بذلك لا يحتاج المتصوِّف إلى الرجوع إلى أي "شيفرة" أو "رقم" مُصطنع لِيتمَّ تخصيص معانٍ فلسفيَّة أو روحيَّة لكلمات الُّلغة العاديَّة - مع الإشارة إلى تعلّق هذه

المعاني بالسليقة بالكلمات على نحو يخلو من الإبهام لِمَن يملك الخيال المُبدِع، أو بتعبير أحمد الغزالي، الذوق الروحيّ.

في ما يتعلَّق بالشعر الصوفيِّ الفارسيِّ، هذا الطابع المُنتظم واللَّاعتباطيُّ للانتقال الدلاليِّ للمفردات العاديَّة على مستوى عالم المثال، هذا الطابع جعل في المتناول، طوال حقب متأخِّرة، وضع معاجم حقيقيَّة وظيفتها تحديد المعنى الميتافيزيقيِّ للمفردات التي يستخدمها الشاعر. ونورد في ما يلي بعض الأمثلة المستقاة من أحد هذه المعاجم، بينها نصّ مأخوذ من كتاب يحمل عنوان (مرآة العشاق) يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر.

إيماءة حب: الاهتمام المصحوب بالحفاوة والودِّ من الله تعالى بالسائر، وذلك بتوفير الشروط الضروريَّة لجذب قلب السائر إليه.

الزهرة: نتيجة المعرفة التي تتفتَّح في قلب السائر.

الطُرْفة: المعنى الخالص الذي يستخرجه السائر من الكلام والعبارات.

الهدب: التهاون الذي يُظهره القائل بالغنوصيَّة في أفعاله عندما لا يُخضعها للنظر الداخليّ.

الجرس: هو الاستدعاء والاتّجاه المُعطيان لقوى النفس ورغباتها التي تنشأ في الإنسان، وذلك بقصد إيصاله إلى إدراك اللذَّات الروحيَّة.

الإفراط: يُقصَد به تخليص السائر وإعفاؤه الطوعيُّ من الصلات التي تربطه بكينونته النسبيَّة.

في الأمثلة التي ذكرناها، ليس ثمّة أيّ مسعى طوعيٍّ يهتمُّ بأسرار الوحي والكلام المنزَل. وبقدر ما يكون غير مُمكنٍ تحقيق المدى الحقيقيِّ للمقاصد التي تقع موقع المفارقة للعالِم الروحانيِّ من دون أن يعيش التجربة التي أوجدتها تلك المقاصد، وبقدر ما لا يكون مُمكنًا النفاذ إلى الدلالات العميقة للُّغة الشعريَّة من دون الخيال الفاعل، يضطلع السرُّ الميتافيزيقيُّ بوجهٍ ما بصيانة نفسه. ومن غير الممكن الولوج إلى هذا السرّ من دون أن يكون المرء أهلاً له، وفي النهاية، الله تعالى وحده يُقرِّر مَن هو العبد الذي يُطلعه على السرِّ. ولعلَّ موقف "الحركة السلمية العمياء"، عندما يسعى العالِم الروحاني جاهدًا إلى تنقية نفسه والبقاء يَقِظًا في انتظار الوحي، هو ما تُظهره الآية القرآنيَّة التالية: ﴿**وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ**﴾[1].

السرّ المُسارّي والإنسان المتألِّه:

إضافة إلى العلاقة المباشرة والشخصيَّة بين الله والباحث عن الحقيقة، عرف الإسلام نمطًا

[1]- سورة يونس، الآية 20.

آخر من كتمان السرِّ يمكن دعوته "السرّ المسارّي"، أي السرّ الذي لا يتيسَّر لعامَّة البشر الاطِّلاع إليه، إلَّا أنَّ حفظه وعرضه مفروضان على مَن هو مؤهَّل قانونيًّا لذلك. بذلك، فإنَّ الهادي، المَحبُوّ بالمعارف والقدرات الخارقة، يؤدّي، من هذا المنظور، دور الوسيط بين الله والمؤمنين المؤهّلين لتلقّي المعرفة المتسامية.

-1 ثمّة آيات قرآنيَّة يمكن تفسيرها بوصفها إشارات إلى هذا النمط من السرِّ، وإلى أشخاص أو فئات من الناس حباها الله تعالى بمعرفة خاصَّة، فيمكنهم بذلك أن يقوموا بدور الوسيط بين الله وبقيّة الناس. من ذلك الآية السابعة من سورة آل عمران ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾[1]. هذه الآية تُشير إحدى قراءاتها إلى فئة «الرّاسِخون في العلم» الذين، من دون بقيَّة الناس، يعرفون التفسير الصحيح للآيات المُتشابهات. ويحكي القرآن أنَّ الله خلق آدم ليكون خليفته في الأرض (البقرة، الآيات 30-34)، ثمّ علّمه أسماء الأشياء التي خلقها وأمره أن يعرضها على الملائكة. بذلك قام آدم بدور الوسيط في عمليَّة نقل المعرفة، فسجد له الملائكة ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾[2]. ولعيسى أيضًا منزلة خاصَّة في القرآن ﴿**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**﴾[3]. من جهة أخرى، يشتمل القرآن على معجم يُبرز صورة تجسيميَّة لله تعالى، وهي صورة تُثبتها الأحاديث (المرفوعة إلى رسول الله ص والصحابة). وتزعم أنَّ الله له يدان ورجلان وعينان وأذنان؛ ويسمع ويرى ويضحك ويغضب. إنّ بعض هذه الأحاديث، التي جرى التعليق عليها في النقاشات اللَّاهوتيَّة كما في الأدب الصوفيِّ، تُظهر الله تعالى على شكل بشريّ.

بديهيٌّ أنَّ سلطة القرآن، الذي هو مُستَمدٌّ أساسًا من الكتاب المقُدَّس، لا يمكن وضعها موضع التشكيك. لكنّ تأويل المعجم والمقاصد التجسيميَّة قسّم علماء اللَّاهوت إلى فريقين متعارضين، فريق «القائلين بالتفسير الحرفي"»، وفريق «الرافضين للتفسير الحرفي"» وفق تعبير د. جيماريه. وقد أكّد الفريق الأول أنَّ الأحاديث الواردة عن رواة ثقة والتي تُشكّل جزءًا من التراث الإسلاميِّ يجب أن تُنقَل حرفيًّا من دون عناء فهمها أو تأويلها. بينما رفض الفريق الثاني هذا الرأي مُعتبراً أنه من غير الممكن تشبيه الله تعالى بالخلق، والزعم بأنَّ له جسمًا وأعضاء على غرار الإنسان. بالتالي، إنَّ المعجم التجسيميَّ للقرآن يجب أن يؤخذ في معنى استعاريٍّ، فـ «يد الله» مثلاً تُفهَم بمعنى

[1]- سورة آل عمران، الآية 7.

[2]- سورة البقرة، الآية 34.

[3]- سورة النساء، الآية 171.

«قدرة الله». وكانت الغلبة إجمالاً للرأي الرافِض للتجسيميَّة حيث فرض قيودًا على التفسيرات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة. رغم ذلك، لم يندثر الرأي القائل بالتجسيميَّة بل عرف تطوُّرًا ملحوظًا في التيارات التي نشأت خارج الإطار الإسلاميِّ «الرسمي»، وفي الصوفيَّة والفلسفة، حتى وصل إلينا اليوم بصور شتَّى.

في القرون الأولى بعد الهجرة، أرست بعض التيَّارات الإسلاميَّة أطروحة التجسيم وذلك بإيضاح فكرة ألوهيَّة الإنسان القديمة ضمن السياق الإسلاميّ. بديهيٌّ أنّها لا تتناول الإنسان العاديَّ، بل "الإنسان" الذي هو على الحقيقة الصورة، والجانب المنظور الذي يمُكن أن يُعرَف، وتجسيد الصفات الإلهيَّة. يمُثّل الإنسان المتألِّه من الناحية الأنطولوجيَّة، المكان والصورة اللذين يتجلّى فيهما السرُّ الميتافيزيقيُّ، والوسيط بين الله الذي لا يمكن أن يُعرَف وبين العالم. ويتجسَّد في الشخصيَّات التاريخيَّة التي تُعدّ الهُداة الحقيقيين للبشريَّة.

بحسب الظاهر، شكّلت فكرة الإنسان المتعالي جزءًا من الآراء القديمة للشيعة، أكبر وأقدم أقليَّة في الإسلام. وأسّست المكانة الأنطولوجيَّة للإمام، المُرشِد الذي يملك المعرفة المسارّيَّة. لا يملك الأئمَّة فقط المعرفة المتسامية، بل يمُثّلون، هم أنفسهم، هذه المعرفة ويعكسون الجانب المنظور لله تعالى. وقد أظهروا ذلك في الأحاديث التي نُسِبَت إليهم، وهي أحاديث غالباً ما وردت في أقوال العرفاء ونصوص المتصوفة نظير: نحن عين الله ويده، نحن وجه الله وجنبه، نحن قلبه ولسانه أذنه. فمعرفة الإمام تنبع إذًا من النفاذ إلى سرِّ المعرفة الإلهيَّة. وهذه الفكرة عبرَّت عنها جملة من كتب الحديث المُسنَدة إلى أئمَّة الشيعة، منها كتاب "بصائر الدرجات" للشيخ الصفار القمّي (المتوفّى سنة 902): من عرفنا فقد عرف الله عزَّ وجلَّ، ومن أنكرنا فقد أنكر الله عزَّ وجلّ.

لقد كانت الوظيفة الأساسيَّة للأئمَّة هي المحافظة على سريان المعرفة الإلهيَّة بعد موت النبيِّ محمدﷺ، وتوفير الدلالة العميقة للرسالة المحمديَّة وبعدها السرّيّ. بمعنى آخر، إذا كان النبي مُكلّفًا بالتنزيل، فإنَّ مهمَّة الأئمَّة على التأويل. لهذا السبب، يملك أئمَّة أهل البيت علم تأويل القرآن والكتب السماويَّة التي سبقته، إضافة إلى علم دلالاتها الأصليَّة كما وردت في الوحي.

ينبغي أن نُنبِّه إلى أنَّ انتقال المعرفة السرّيَّة، الذي واكب أئمَّة الشيعة بدءًا بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، صهر النبيِّ، وزوج ابنته فاطمة، عُرِضَ غالبًا بمصطلحات تتناول جوهر الإسلام، ومن الصعب حمل هذه الرسالة. فقد ورد الإمام قوله: إنَّ أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلَّا ملك مقرَّب، أو نبيٌّ مرسَل، أو عبد قد امتحن الله قلبه للإيمان. إذاً، تُشكّل المعرفة السرّية سرًا أودعه الله لدى الأئمَّة، ولا يمكن إفشاؤه إلَّا للمخلصين الذين خُلِقوا خصّيصًا لهذه الغاية فهم وحدهم قادرون على الاضطلاع بهذا السرّ. أمَّا بقية الناس فليسوا قادرين على استيعابه. جاء في الحديث:

العدد الخامس - 1445هـ - ربيع 2023م

«إنَّ عندنا سرًّا من سرِّ الله وعلمًا من علم الله، أمرنا الله بتبليغه، فبلغنا عن الله عزَّ وجلَّ ما أمرنا بتبليغه، فلم نجد له موضعًا ولا أهلاً ولا حمَّالة يحتملونه حتى خلق الله لذلك أقوامًا، خلقوا من طينة خُلِق منها محمد وآله وذريَّته(ع)، ومن نور خلق الله منه محمدًا وذريَّته، وصنعهم بفضل صنع رحمته التي صنع منها محمدًا وذريَّته، فبلغنا عن الله ما أمرنا بتبليغه، فقبلوه واحتملوا ذلك، وبلغهم ذكرنا فمالت قلوبهم إلى معرفتنا وحديثنا، فلولا أنهم خلقوا من هذا لما كانوا كذلك، لا والله ما احتملوه».

يُستفاد من ذلك الحديث أنّ الله تعالى محا العقيدة الإماميَّة من أذهان غير الشيعة، وأَمَرَ الأئمة بإخفائها عن الناس، كذلك أوصى الأئمَّة أتباعهم بذلك. وثمَّة أحاديث تلحظ شرط التوافق بين الماهيَّة والصلصال (الجوهريَّة المشتركة بين جسد الإمام وقلب المُحِبّ)، الضروريّ لنقل السرّ.

لا ريب في أنَّ المعرفة التي يملكها الأئمَّة لا يمكن إفشاؤها لأيِّ شخص، ليس لأسباب احترابيَّة أو سياسيَّة -سنعود إليها- وإنَّما لأسباب تتعلَّق بطبيعة هذه المعرفة. فالمعرفة التي تتطابق، كما أسلفنا، مع كينونة الإمام بوصفه تجلّيًا للصفات الإلهيَّة، تُشكّل سرًّا مَصونًا ومحصورًا بأقلّيَّة من المُسارّين. وثمَّة أحاديث عدَّة مَرويَّة عن الأئمَّة تؤيّد ذلك، منها: " إنَّ **أمرنا سرٌّ** مستتر وسرٌّ لا يفيده إلَّا **سرٌّ** وسرٌّ على **سرٍّ وسرٌّ** مقنع **بسرّ**».

والواقع أنَّ طابع العقيدة الإماميَّة يشرح السبب الذي جعل من نظام التقيَّة أحد العناصر المركزيَّة للإيمان الشيعيّ. وسنعود إلى التجلّيات الخارجيَّة للتقيَّة.

السرّ المُساريّ في أفُقه السياسي:

علاوة على الأسباب الأنطولوجيَّة، المتَّصلة بطبيعة المعرفة المُقدَّسة، فرض كتمان السرّ في الإسلام نفسه أيضًا - وربما بصورة خاصَّة - لأسباب سياسيَّة واجتماعيَّة. وثمَّة مجموعة رجال دين ذوي نزعة "وجديَّة" تعرَّضوا للاضطهاد. ويندرج كلامهم المُباشر الذي يقع موقع المفارقة، على نحو سيّئ، ضمن نطاق يتَّسم بحدّة اللّاهوت الجدليِّ مع جهازه العقلانيّ. في عام 877، طُلِبَ من أبي الحسين النوريِّ (المُتوفىَّ سنة 907) ومعه متصوِّفون آخرون من بغداد، أن يقدِّموا تفسيراً لمذاهبهم، خصوصًا حول العلاقة بالله تعالى التي أثارت انزعاج بعض علماء اللّاهوت (غلام خليل المتوفىَّ سنة 888). وبعد محاكمة وإعدام منصور الحلّاج (المُتوفىَّ سنة 922)، والذي يُعدُّ الصورة الشهيرة في المذهب الباطنيِّ الإسلاميِّ، ساد التيَّار "المعتدل" الذي لا يُراعي إلَّا الكتمان والسرّ. والوقع أنَّ النزعة الوجديَّة لا تختفي، بل تختار أشكال التعبير الأكثر كتمانًا، مثل لغة الشعر الصوفيِّ الفارسيِّ التي تحدَّثنا عنها سابقًا، حيث المضمون الميتافيزيقيُّ مُقنَّع باستخدام المعجم العاديِّ الدنيويّ.

لا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ علماء المنزع "المعتدل" لا يستحسنون دائمًا موقف الصوفيين "الوجديين"، واصفين كلامهم بأنَّه ينمُّ عن عدم نضج روحيٍّ، إفشاء الحقيقة التي يجب أن تبقى بين الله تعالى وعبده. وبحسب وجهة النظر هذه، فإنَّ واجب حفظ السرِّ له أيضًا بُعدٌ إتيقيٌّ: إنَّ المرتبة الروحيَّة التي يبلغها الصوفيُّ يمكن أن يُقرَّ بها أولئك الذين بلغوا المرتبة ذاتها، ولكنَّها يجب أن تبقى محجوبة عن الناس العاديين. فإفشاء السرِّ أمام مَن هو غير قادر على فهمه ومنحه قيمته التي تليق به إنَّما يؤدّي إلى سوء الفهم. ولم يفلح الملامتيُّون في نيل الرضا الاجتماعيِّ وساءت سمعتهم في سبيل إخفاء اكتمالهم الروحيّ.

في ضوء ذلك، اكتسبت لفظة (شطح)، وهي عبارة ثيوبائيَّة مفارقة، شيئًا فشيئًا داخل بعض التيَّارات الصوفيَّة الإسلاميَّة إيحاءً سلبيًّا نجده في (كتاب التعريفات) للجرجاني الذي عاش في القرن الرابع عشر. والشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهو من زلَّات المحقّقين، كونه دعوى بحقٍّ يُفصح بها العارف من غير إذن إلهيٍّ بطريق يُشعر بالنباهة.

من المهمِّ القول أنَّ ضرورة صون السرِّ لأسباب إجتماعية وسياسيَّة تفرض نفسها، منذ القرون الهجريَّة الأولى. ففكرة الإنسان المعصوم، المُحاطة بمعرفة متسامية، ومعها فكرة استمرار النبوَّة في صلب الأئمَّة الذين هم، بنظر الأتباع والمخلصين، وحدهم الهُداة الشرعيون لعامَّة المسلمين، شكّلتا خطرًا حقيقيًّا على الخلافة. ورغم أنَّ الأئمَّة سعوا جاهدين للبقاء بمنأى عن السياسة - خصوصًا بعد استشهاد ثالث الأئمة الإمام الحسين في كربلاء سنة 680 م، فقد انشغل قادة الحركات "الأقلّويَّة" وعلماؤها منذ القرون الهجريَّة الأولى، بضرورة إخفاء آرائهم من أجل اجتناب سوء الفهم اللاَّهوتيِّ والمُضايقات السياسيَّة.

يشمل الكتمان النقل الشفاهيَّ والنقل الكتابيَّ للآراء على السَّواء. ويقوم بصورة أساسيَّة على مقاربة انتقائيَّة للمُخاطبين. فالمعرفة المُوجَّهة إلى التابع يجب ألاَّ يذيعها أمام المُخالف. ولا شكَّ في أنَّ إخفاء الآراء المكتوبة طرح معضلات خاصَّة، فقد كان بإمكان عموم المسلمين الاطِّلاع عليها. لذلك تمّ استخدام تقنيات عدَّة للتشفير لمنع التابعين الجدد من الاطِّلاع على مضامين النصوص، بحيث لا يستطيع قراءتها إلاَّ مَن هو قادر على فكِّ شيفرتها، أو الأكثر اندفاعًا لشرحها. واشتملت كتب الحديث الشيعيَّة القديمة والكتب الخيماويَّة المنسوبة إلى جابر بن حيَّان، وهو من أتباع الإمام جعفر الصادق، على أمثلة للتقنيَّة الخاصَّة بـ "تبديد العلم". وتقتضي هذه التقنيَّة التشظية والتفريق القصديَّ لمسائل العقيدة في مواضع مختلفة من النصِّ 29. وثمَّة مصطلح خاصٌّ كان يُستعمَل من قبل المؤلِّفين الشيعة في شرح بعض الآيات القرآنيَّة من أجل حجب المواضيع الخلافيَّة بالنسبة إلى السنَّة الذين يُشكّلون الغالبيَّة 30. ولعلَّ استخدام علامات خاصَّة، في الكتابات

القديمة، مثل الأبجديَّة النبطيَّة والأبجديَّة المنتشِرة في جنوب شبه الجزيرة العربية هو ما تؤكِّده بعض النصوص الإسماعيليَّة والنصَيريَّة.

الحركة الحروفيَّة:

فضلاً عن عدم توفُّر نصوص تحظى بعناية أتباع الأئمَّة، يُشكّل تطبيق تقنيَّات الكتمان أحد الأسباب التي حدَّت من انتشار آراء الأقليَّة الشيعيَّة في العالم الإسلامي. فكان الكتمان من أجل الكشف، والهدم من أجل إعادة بناء المعنى، والفكرة وتقنيَّات السرِّ في النصوص الحروفيَّة.

نوضح هنا أنَّ الحركة الحروفيَّة هي حركة ذات منزع سرَّاني، تأسَّست في إيران في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد فضل الله الاستراباديِّ (توفيّ سنة 1394) على غرار الكثير من الحركات المشابهة التي انبثقت في إيران في ذلك الوقت، وهي تُقيم دمجًا بين عناصر إسلاميَّة مختلفة، لا سيَّما الشيعة والصوفيَّة.

هذه الحركة تطوَّرت في فترة مضطربة تخلَّلها صراع عنيف بين مدارس عدَّة تتنازع على دوائر التأثير في إيران. وقد تمسّك الاستراباديُّ بعقيدته التي ترتكز على النزوع إلى الخلاص، وسعى لإقناع القوى السياسيَّة بأفكاره. ثمَّ واصل أولاده وأتباعه هذه الاستراتيجيَّة بعد موته. ثم جرى تطوير تقنيَّات السرِّ في كتب الحروفيين بهدف صون ونشر العقيدة الحروفيَّة. ومن المفيد التذكير هنا بالتقنيَّات التي ترتبط بأنواع السرِّ:

أوَّلًا: إنَّ الصلة بالسرِّ الميتافيزيقيِّ ذات أهمّيَّة رئيسيَّة من أجل إرساء السلطة الروحيَّة للمؤسِّس. ويُشدِّد أصحاب المدرسة الحروفيَّة في كتبهم على أنَّ الاستراباديَّ تلقّى عقيدته بصورة مباشرة من مصدر غير عاديّ. بعد سلسلة أحلام مُسارّيَّة تلقّى بالتدريج علم التأويل بالمعنى الواسع. وبرأيه أنَّ علم التأويل مَبنِيٌّ على معرفة الدلالة الميتافيزيقيَّة لحروف الأبجديَّة، أي على إدراك صور الحروف باعتبارها أماكن مظهر الفونيمات الأولى الصادرة عن الكلمة الإلهيَّة.

ثانيًا: في مظهرها المادّيِّ تُعينَّ الأحرف بواسطة 28 علامة من الأبجديَّة العربيَّة و32 علامة من الأبجديَّة العربيَّة-الفارسيَّة.

ثالثًا: تِبعًا لعلم نشأة الكون الحروفيِّ، صورة الحرف هي الصورة الأبسط، اللبِنات التي تتألّف منها الصورة الجسديَّة لكلِّ شيء سواء أكان موجودًا بالفعل أم مُمكنًا لا أكثر، في حين أنَّ الاسم الأنطولوجيَّ للشيء، الاسم الذي يُشكِّل دلالته الميتافيزيقيَّة العميقة، يتألّف من فونَيمات. وكلُّ شيء يمكن حرفيًّا "قراءته" من أيِّ شخص قادر على تمييز أشكال الحروف من خلال صورة الشيء.

رابعًا: مُدرِكًا الرابط الذي يصِل بين الحروف والفونيمات للكلمة الإلهيَّة، بإمكان القائل بالحروفيَّة

"تأويل" كلّ ما هو موجود بإرجاع الصور الجسديَّة إلى دلالاتها الأصليَّة في الكلمة، المصدر الأول لكلِّ الخلق (تبعًا للمعنى الاشتقاقيِّ لكلمة "تأويل": الرجوع إلى الأصل). الأمر نفسه ينطبق على تأويل الكتب المقدَّسة: الصلة بالكلمة الإلهيَّة هي، في هذه الحالة، أكثر صراحة بما أنَّ هذه الكتب ليست سوى التعبير المباشِر عن الكلمة الإلهيَّة في اللُّغات البشريَّة. ومعرفة دلالة كلِّ حرف لوحده تسمح بالولوج إلى مستوى أعلى في التأويل، والولوج إلى الحقائق الخفيَّة وراء الدلالة الاصطلاحيَّة للكلمات والعبارات للُّغة البشريَّة العاديَّة. بعبارة أخرى، في المنظور الحروفيِّ، إنَّ امتلاك سرِّ حروف الأبجديَّة يعني امتلاك علم التأويل الكونيِّ والنهائيّ. يجدر القول أنَّ الحروفيين استخدموا تقنيَّات عديدة لكتمان السرِّ تفيدنا في النقاش حول "السرّ السياسيِّ"، والسبب وراء ذلك هو أن يمنعوا الولوج المباشر إلى نصوصهم من قبل خصومهم الذين يبحثون فيها عمَّا يمكن توظيفه في اتِّهامهم. وثمَّة كتب حروفيَّة قديمة كُتِبت بلغة خاصَّة هي مزيج من الفارسيَّة واللَّهجة المحلّيَّة القديمة (مدينة استراباد، مسقط رأس فضل الله الاستراباديّ وبعض مريديه).

هذه التقنيَّات تُشكِّل المستوى الأولى من الكتمان. والقارئ المجتهد، بعد استيعابه اللَّهجة المحلّيَّة وقراءة الأحرف الأولى من الكلمات - وهي مهمَّة تكون سهلة من خلال المعاجم التي تشتمل عليها بعض المخطوطات - يقف أمام تحدٍّ آخر، وهذه المرَّة هو تحدٍّ بنيويّ. فبعض الكتب الحروفيَّة العقديَّة القديمة، من بينها "الجافداناما" (كتاب الخلود)، الذي هو أهمُّ كتب الاستراباديِّ، ويُعدُّ بنظر أتباعه كتابًا مقدّسًا، تُقدِّم بنية مجزَّأة. بعبارة أخرى، عوضًا عن الوصف المتماسك والمُنظَّم من حيث الموضوع، يجد القارئ في هذا الكتاب فقرات تتتالى بلا أيِّ رابط منطقيٍّ في ما يقرب من ألف صفحة. وبين الفقرات نجد مقاطع مُشارًا إليها بخطوط أفقيَّة أو بالبسملة. هذه التقنيَّة المُستوحاة من كتاب (تبديد العلم) الذي أشرنا إليه آنفًا، تستلزم مفتاحًا ومبدأ تنظيميًّا يسمح بترميم العرض المتماسك لمضامينها، والولوج بالتالي إلى شرح العقيدة.

ثمَّة فكرة تقول إنَّ البنية المُشظّاة لـ (الجافداناما) أو (كتاب الخلود) تُحاكي بنية القرآن. فالانقطاع هو إحدى السِّمات التي تُميِّز النصَّ القرآني. لكنَّ (الجافداناما) يتضمَّن مقاطع تفترض جمع الآيات القرآنيَّة التي تختصُّ بالموضوع ذاته، رغم أنَّها وردت في مواضع مختلفة من القرآن، وهذا ما يخلق لدى القارئ فكرة أن يُطبِّق النهج ذاته على ما ورد في (كتاب الخلود). والواقع أنَّ فكرة محاكاة القرآن تؤيّدها رغبة (الجافداناما) بأن يصبح الكتاب الذي يحوي علم التأويل الذي أسّسه فضل الله الاستراباديِّ، وهو التأويل النهائيُّ للقرآن، وهدايته من جديد إلى الكلمة الإلهيَّة الأصليَّة. فحروف الأبجديَّة عمومًا، وحروف القرآن السرّيَّة خصوصًا، تؤدّي دورًا رئيسيًّا في هذه الهداية.

ثمَّة عناصر عديدة تُثبت أنَّ أتباع الاستراباديِّ كانوا يُدركون اللُّغز الكامن وراء تشظية كتاب (الجافداناما). ويضمُّ الأدب الحروفيُّ مؤلَّفات عدَّة تسعى لتكون بمثابة عرض نسقيٍّ لمضامينها. بيد أنَّ هناك ملاحظة من مجهول جاءت في نهاية مخطوطة المكتبة البريطانيَّة رقم 5957، وتُقدّم

علوم المبدأ LLMOLMABDAA
العدد الخامس - 1445هـ - ربيع 2023م

وصفًا مُفصّلاً لستَّة فصول يجري فيها تصنيف مقاطع الكتاب وتبويبه بحسب الموضوعات. وعندما افترضت تقنيَّة التشظية المعرفة المسبقة بنهج إعادة تنظيم الكتاب، طالبت كل مَن يرغب بالاطلاع على الآراء الحروفية ببذل جهد كبير من أجل صيانته من أي تأويل عَرَضيّ.

علاوة على ذلك، لتقنية التشظية بُعدٌ "مُسارّي". فهي من جهة، تحصر الاطّلاع على المضامين العقديَّة بأقلّيَّة معيَّنة ترغب، في غياب التلقين الشفاهيِّ للعالِم، بإعادة بناء المقاطع المُشظَّاة. ومن ناحية أخرى، يُقيم كتاب (الجافداناما) صلةً بين تشظية النصِّ والوصول إلى معناه الأعمق، أي بين التشظِية ونهج التأويل.

هذه الفكرة الأخيرة تشرحها الألواح التي تلقَّاها النبيُّ موسى عليها السلام (سفر الخروج، 32: 19). مُستندًا إلى نظريَّته في التأويل التي ترتكز على معرفة الدلالة الأنطولوجيَّة للأحرف الأبجديَّة. فالكاتب يقدِّم تأويلاً جديدًا لقصة الألواح يُحطِّم موسى الألواح فيها لأنَّه كان يريد إبراز الحروف التي تؤلِّفها. وينبغي التذكير بأنَّ هذه الحروف هي، برأي الاسترابادي، "أماكن تجلّي" الفونيمات الأولى للكلمة الإلهيَّة، ومنطلقات التأويل النهائيِّ باعتباره يؤمّن الوصول من كلام الوحي الذي يُصاغ بلغة بشريَّة إلى الكلام الإلهيِّ الأصليّ.

بحسب هذا التأويل، يجب هدم النصِّ من أجل الوصول إلى دلالته الحقيقيَّة. ومع عدم تمكُّننا من تأكيد ذلك، يمكننا افتراض أنَّ التكوين المُشظّى في (الجافداناما) ليس تقنيَّة "كتمان" سياسيٍّ فحسب، بل يُعبرِّ أيضًا عن تصوُّر فلسفيٍّ أعمق لدى المؤلِّف.

لقد كان حفظ السرِّ في الإسلام، لأسباب تتعلَّق بالممارسة والسياسة، بوصفه وسيلة لصيانة ونشر الأفكار التي ينبذها "المعتقد المستقيم"، وتطوَّرت بالتدريج نحو صور أكثر تعقيدًا، استنادًا إلى عقائد لاهوتيَّة وفلسفيَّة وصوفيَّة. وتسعى آراء الفِرق الإسلاميَّة المختلفة للتوفيق بين مختلف الجوانب الخاصَّة بتقنيَّات حفظ السرّ التي قمنا بتخصيصها شكليًّا وميتافيزيقيًّا ومُسارّيًّا وسياسيًّا. ففي عقائد بعض هذه الفِرق، على غرار ما رأيناه عند المدرسة الحروفيَّة، تتوقَّف فكرة حفظ السرِّ والتقنيَّات الواقعيَّة المستخدَمة لهذا الغرض على المقدِّمات النظريَّة التي تطال المبادئ والأسُس، وتتخطَّى كثيراً إطار الكتمان الذي هو براغماتيٌّ بحت.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.